جرجى زيدان..

عدالة المؤرخ.. وإبداع الأديب

«دعونا مجلتنا هذه بالهلال لثلاثة أسباب.. تبركا بالهلال العثمانى الرفيع الشأن.. وإشارة لظهور الهلال مرة كل شهر.. وتفاؤلا بنموها مع الزمن.. حتى تتدرج فى مدارج الكمال.. فإذا لاقت قبولا وإقبالا.. أصبحت بدرا كاملا بإذن الله».

وهكذا ومنذ اللحظة الأولى لإصدار «الهلال».. يكتب مؤسسها وصاحبها جرجى زيدان فى العدد الأول شارحا أسباب اختيار الاسم.. وراسما لخريطة طموحاته بأن ينمو الهلال ليصبح بدرا.. ولم يكتف الرجل فى العدد الأول من مجلته الوليدة بهذا.. ولكنه اختار شعارا يختصر رؤيته.. ويشحذ عزيمته وهو «إلى الأمام».. وإضافة إلى الاسم والشعار فقد اختصر سياسة مجلته فى مبدأ يؤكد على أنه سيسعى دوما خلف الحق والحقيقة حيث جعل مبدأه «لا يصح إلا الصحيح.. ولا يبقى إلا الأصح».

وفى العدد الأول من الهلال عمل جرجى زيدان على تحديد القضايا التى سيعمل على مناقشتها على صفحات المجلة الوليدة.. وأجملها فى ثلاثين قضية.. وعمل أيضا على تقسيم صفحات المجلة إلى خمسة أقسام.. يلفت النظر فيها قسم «التقريظ والانتقاد» مما يعنى أنه قرر ومنذ البداية أن يمتدح المجيد.. وأن ينتقد المقصر والمسىء.. ثم قسم «الروايات».. بما يؤكد أن زيدان قد بدأ كتابة رواياته عن تاريخ الإسلام.. قبل أن يصدر الهلال.

وكل هذا يؤكد على أن جرجى زيدان لم يصدر الهلال، بحثا عن وسيلة للإرتزاق.. ولكنه كان صاحب رسالة.. وصاحب عزيمة لا تلين..

وإرادة صلبــة.. فعندما صدرت الهلال ١٨٩٢م كان هو محررها وكاتبها ومديرها وطابعها.

ولأن جرجى زيدان شخصية مترامية الأطراف.. وعرة المسالك.. ولأن «الهلال» قــد صارت ومنذ زمن طويل «ديوان العرب».. ومخزن ثقافتهم وفكرهــم.. فإن الإحاطة بكل شـــىء عن الهـــلال وصاحبها يعد دربا من المســتحيل.. ولذلك ســنحاول التوقف عند بعض المحطات لدى زيدان وهلالــه.. خاصة وأن الوقوف أمام أحدهمــا لا يكتمل أبدا إلا بالوقوف أمام الآخر.. فمنذ صدور الهلال وحتى رحيل زيدان ١٩١٤م.. كانا مثل «التوأم الســيامى» الذى يســتحيل الفصل بينهما.. ومن هذه المحطات مايلى:-

أولا: العصاميــة والإرادة والطمــوح.. مثلــث العبقريــة الذى تحرك من خلالــه جرجــى زيدان ليصعد مــن جب الفاقة والعــوز.. إلى قمة الفكــر والأدب.. فــكل الطرق كانت تؤدى بهــذا الطفل.. ليصبح مجرد عامل فى مطعم أو «إســكافى».. حيث ينتمى إلى أسرة خرج عائلهــا «الجد» مطــرودا ومطاردا من قريته عــين عنوب فى قضاء عالية شرق الشــويفات.. ليذهب مع أبنائه إلى بيروت التى كانت مجرد مكان ريفى.. ووجدت هذه الأســرة نفســها أمام خيار وحيد فإما العمل الشــاق وإما الموت.. وسعى الأبناء خلف الرزق.. واتجه «والد جرجى» لافتتاح مطعم صغير.. وجاء جرجى لتسعى الأم بكل الطــرق لكى تفلت ابنها من هذا المصــير البائس.. فتلح على الأب لكــى يذهب الصبى إلى المدرســة الأولية... والتى لم يســتمر فيها

طويــلا.. ليجذبه الأب إلى المطعم.. ويختلــف الأبوان.. ثم يتفقان على أن يتعلم جرجي «صنعة» واختارا إصلاح الأحذية «إسكافي».. ورضـــى الطفل الصغير بأقداره.. وظل في هذه المهنة عامين أصيب خلالهمــا بالعديد من الأمراض.. نتيجة تعامله مع المواد الكيماوية والجلود.. ليترك هذه الصنعة المهلكة عائدا إلى مطعم أبيه.. ليلتقي بأحد زبائن المطعم «مســعود الطويل».. وهو صاحب مدرســة ليلية وطلب الفتى أن يتعلم اللغة الإنجليزية.. مع اســتمراره في العمل مع والده لأنه تعلم من متابعة والديه «أن الإنســان خلق ليشتغل.. وأن الجلوس بلا عمل عيب».. وبعد أن قطع شوطا كبيرا في تعلم الإنجليزية.. انقطع عن التعليم وهو في الحادية عشرة من العمر.. واســتمر يعمل مع والده في المطعم وفي هذه الفترة كان يســتمع إلى قصص الحكواتي.. في مقهى قريب من مطعم والده فســمع قصص عنترة والزير سالم وفيروز شاه وعلى الزيبق.. وحرص على مشاهدة «الأراجــوز».. فولــدت بداخله أجنــة الأدب.. والتي راحت تنمو وتتعملق بعد أن راح يقرأ أشعار المتنبي وابن الفارض.. ويحاول أن ينظم الشعر.. وقرأ في هذه المرحلة كتاب «مجمع البحرين» للشيخ ناصف اليازجي.. كما بدأ في متابعة مجلة المقتطف.. ولكن التفرغ للقــراءة والأدب.. كانت رفاهية لا يمكن لعائلة من «الشــغيلة» أن تمتلكهــا.. خاصة بعد أن اتفق والده مــع صديقه حنا الزيلع على افتتاح فندق صغير ملاصق لمســرح ســوريا.. وافتتحا أسفله مطعما عهد به لا بنيهما: جرجي زيدان.. جرجي الزيلع.. ولكن «نداهة»

التفــوق والتميز ظلت تصرخ فى وجدان الفتى الصغير.. خاصة بعد أن قرأ كتاب «سر النجاح» والذى نقله إلى العربية يعقوب صروف.. وفيه فصول عن بعض العظماء الذين بدأوا حياتهم بالعمل فى مهن بسـيطة «حلاق - إسـكافى - خادم - إلخ».. فقــرر الفتى الذى درس الإنجليزيـة.. وقرأ الكثير من الكتب العلمية أن يتقدم للقبول فى كلية الطب فى الكلية الإنجيلية السـورية فى بيروت.. والتى أصبحـت فيما بعد جامعة بـيروت الأمريكية.. وكان ذلك فى عام ١٨٨١م.. وحدثت المفاجأة وتم قبول جرجى زيدان بكلية الطب.. ليضع قدمه على أولى درجات سـلم المجد.. ويصعد بضع درجات بعـد أن نجـح فى العام الأول.. ولكن تأتى الرياح بما لا تشـتهى السفن.. حيث شارك جرجى زيدان فى إضراب كبير لطلبة الكلية احتجاجا على فصل أحد الأساتذة.. وعندما فشلت الإدارة فى فض الإضـراب قررت فصل كل الطلبة المشـاركين فيه.. ليجد جرجى نفسـه يهـوى مرة أخرى إلى جـب الفاقة والعـوز.. ولكن «نداهة المجد» كانت قد تمكنت منه.. وجاء خطاب الأستاذ ملحم شكور.. رئيس المدارس الإنجليزية بالفجالة فى مصر ليصبح «القشـة» التى يتعلـق بهـا الغريق.. حيث أكد على أن وكيل مدرسـة طب قصر العينـى.. قد وافق علـى قبول الطلبة المفصولين بعـد امتحانهم.. واقترض جرجى ستة جنيهات من جارهم «مصباح المحمصانى».. وسـارع بالذهـاب إلى الميناء ليركب أول سـفينة ذاهبة إلى مصر.. ويقول عن ذلك فى مذكراته.

«كان وصولنا إلى الإسكندرية سنة ١٨٨٣م.. وهى السنة الثانية لثورة عرابى.. وقد قاسيت كثيرا من ركوب الباخرة التجارية التى أقلتنا إليها حاملة شحنة من البقر والغنم... وأمضينا فى الإسكندرية أياما شاهدنا فيها أثار ضربها بالمدافع البريطانية.. والحرائق الهائلة التى دمرت كثيرا منها.. وأوقعت بها الخسائر الفادحة.. ثم انتقلنا إلى القاهرة حيث نزلت وزميلى بأحد الفنادق.. وزرنا الأستاذ ملحم شكور فأكرم وفادتنا كل الإكرام. وظل وقتا طويلا وهو يسعى معنا فى سبيل إلحاقنا بمدرسة الطب بقصر العينى.. ولكن هذه المساعى لم تكلل بالنجاح».

ثانيا: لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس.. حكمة عظيمة تعلق جرجى زيدان بأهدابها.. بعد أن انهارت أحلامه فى دراسة الطب.. وبعد أن وجد نفسه غريبا مفلسا.. ولم يكن أمامه إلا البحث عن «سفينة إنقاذ» للخروج من هذا التيه.. وتذكر مقاله الذى كتبه فى صباه الباكر عن الأباء الذين يهملون تعليم أبنائهم والذى أرسله إلى مجلة المقتطف.. وبرغم أنه لم ينشر.. إلا أنه ظل دوما يحلم بالكتابة والصحافة.. وعلى الفور ذهب إلى جريدة الزمان وهى الجريدة اليومية الوحيدة فى القاهرة.. ولم يدم به المقام كثيرا فى جريدة الزمان.. حيث التحق كمترجم فى عام ١٨٨٤م بالحملة الإنجليزية إلى السودان لإنقاذ الحاكم الإنجليزى «جوردون» من ثورة المهدى.. وعاد بعد عشرة أشهر حاصلا على ثلاثة أوسمة.. وفى عام ١٨٨٥م استدعاه المجمع العلمى الشرقى ببيروت ليكون عضوا شرفيا به.. وهناك انتهى من أول كتبه «الفلسفة اللغوية».. وفى عام ١٨٨٦م

سافر إلى إنجلترا.. وعاد منها إلى القاهرة ليدير مجلة المقتطف التي يصدرها يعقوب صروف لمدة عامين.. ألف خلالهما كتبه «تاريخ مصر الحديث - تاريخ الماسونية العام - التاريخ العام».. وفي عام ١٨٨٩م قام بالتدريس في المدرسة العبيدية لمدة عامين ألف خلالهما روايته «المملوك الشارد» لتكون بداية لمشروعة الكبير روآيات تاريخ الإسلام «٢٢ رواية» وهكذا عاود جرجي زيدان الصعود على سلم المجد بخطى ثابتة وواثقة.. بعد أن عرف الطريق وتعرف على ملكاته وقدراته.

ثالثا: كل مهنة لها أدواتها وآلياتها.. ولابد للأخذ بها ليحصل الإنسان على التفوق والنجاح.. فإذا ما ازدانت هذه الأدوات والآليات بسياج من الأخلاق الرفيعة سمت وارتفعت وأصبحت نموذجا يحتذى.. وهذا ما فعله جرجي زيدان والذى ألزم نفسه منذ صباه الباكر بمنظومة صارمة من الأخلاق الحميدة كشف عنها في مذكراته قائلا «جعلت نصب عيني دائما أن أحافظ على نقاء سيرتي.. وأن أتجنب الكلام البذيء.. ومعاشرة غير الأدباء.. وأمسكت عن المزاح إمساكا تاما.. فغلب الجد على أقوالي وأعمالي.. وبالغت في الابتعاد عن مواطن الشبهات.. حتى أصبحت لا أدفع عيني إلى وجه أمرأة.. ولا أمر بشارع فيه بيت يخوض الناس في سيرة إحدى ساكناته.. وكان صديقي «شاول»، من هذا الطراز أيضا.. فتوطدت الألفة بيننا.. واشتهر ذلك عنا بين البيروتيين حتى ضربوا بنا الأمثال.. وهكذا تفرغ جرجي زيدان للعمل والإبداع

فقط.. لدرجة أن إدوارد فانديك الأستاذ بالمدرسة الخديوية.. قد تنبأ بأن زيدان سيموت مبكرا ضحية الجهد المضنى الذى يبذله فى العمل العقلى الليلى.

رابعا: الشجاعة المغامرة تدفع أصحابها إلى الفوز والتحقق «ويفوز باللذات كل مغامر».. فبعد أن تزوج جرجى زيدان فى عام ١٨٩١م كان المفترض أن يبحث عن «دخل ثابت» ليرعى بيته وأسرته.. ولكنه فى العام التالى مباشرة اشترك مع نجيب مترى فى تأسيس مطبعة التأليف بالفجالة.. ربما ليصدر من خلالها مؤلفاته التى بدأت تتوالى.. وربما ليتخذ منها مشروعا تجاريا.. ولكن الشريكين اختلفا.. فقرر زيدان أن يستقل بالمطبعة.. وأن يغير اسمها إلى «الهلال».. وأن يغامر أكثر وأكثر ليصدر من خلالها مجلة الهلال عام ١٨٩٢م.. ليصبح نجمها الأول والأوحد.. فهو محررها ومديرها.. والقائم على كل شئونها.. وسرعان ما استطاعت المجلة الوليدة أن تلفت الانتباه.. وأن تحقق النجاحات بفضل كتابات جرجى زيدان.. والذى أوكل إدراتها إلى شقيقه «مترى زيدان» وتفرغ هو للكتابة والتأليف.. ينشر ما يكتبه على صفحات الهلال أولا.. ثم تتحول هذه الكتابات إلى كتب وروآيات.

خامسا: إذا كانت العصامية هى التى دفعت.. جرجى زيدان من السفح إلى القمة.. فإن «الموسوعية» هى التى جعلته واحدا من رواد التنوير فى الوطن العربى.. خاصة وهو الباحث دوما

عن الحقيقة.. ذلك البحث الذى يستلزم التقصى والتمعن والتمحيص والموازنة والمقابلة.. أو كما كتب هو فى هلال نوفمبر ١٨٩٩م «إن الروآيات التاريخية تحتاج إلى المراجعة.. والتنقيب لتمحيص الحوادث التاريخية وتطبيقها على الحوادث الغرامية حتى لا يظهر فيها التكلف أو الضعف».. والأهم أنه لم يكن يستنكف النقد بل يستفيد منه.. فعندما طلب منه أحد القراء تعليقا على ما جاء فى رواية «عذراء قريش».. أن يجعل قصص الحب لأشخاص غير أبناء الصحابة رضوان الله عليهم كتب موافقا «أما الآن فقد عولنا بعد أن تتم عذراء قريش فى آخر السنة السابعة من الهلال إن شاء الله أن نجرى فى روآياتنا التالية على رأى حضرته.. وما غرضنا إلا الفائدة العامة».

وتلك الموسوعية فى البحث والتنقيب.. هى التى ساعدت جرجى زيدان على غزارة الإنتاج.. حيث توالت روآياته وكتبه لتصل إلى أكثر من خمسين كتابا «٢٢ رواية عن تاريخ الإسلام – خمسة أجزاء عن تاريخ التمدن الإسلامى – أربعة أجزاء عن تاريخ آداب اللغة العربية – جزءان عن مشاهير الشرق – العرب قبل الإسلام – أنساب العرب القدماء – طبقات الأمم – عجائب الخلق – تراجم ومشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر.. إلخ» وقد ساعده إتقانه للإنجليزية.. وقراءته للألمانية على أن يترك هذا الإنتاج الضخم فى التاريخ والأدب واللغة.. والاجتماع والرواية والتراجم والسير.. فقد أضاف المراجع الأجنبية.. إلى

بحثــه وتنقيبه فى أمهات الكتب العربيــة.. مما جعله واحدا من الذين عملــوا على بعث التراث العربى.. وإحياء صفحاته وقراءته قراءة جديدة تتسق مع مناهج العصر الحديث.

سادســا: تحول جرجى زيدان إلى سبيكة انصهرت عناصرها وتوحدت لدرجــة يســتحيل معها فصــل عنصر عن آخــر.. أو تمييز عنصر عــن أخر.. فهو مفكر لبنانى المولد.. مصرى الإقامة.. عروبى الهوى.. إســلامى الثقافة.. كما أنه المســيحى الذى وضع يده على عناصر التســامح والعقلانية والتميز فى الثقافة الإســلامية.. ليحول هذا التاريخ من مادة صماء إلى حكآيات ووقائع وشــخصيات شديدة الحيوية.. كما دافع عن الإسلام وثقافتــه دفاعــا نبيلا.. حيث كان يرى «أن تاريخ الإســلام هــو تاريخ الشــرق الحديــث.. أو هو تاريخ العــالم كله بعد عصــر الرومان والفرس».. وفى هذا الإطار يقول صديقه لطفى جمعــة الذى اقترب منه كثيرا خــلال العامين الأخيرين من حياته« لم يخط جرجى زيدان سطرا واحدا ضد مصر والعرب والإســلام.. كمــا فعل أصحاب المقطم.. مــع أنه بدأ بالعمل معهم فى الإدارة والمطبعة.. وعاشــرهم طويلا ثم انفصل عنهم وصار فى خطة مغايرة لخطتهم ولو كان ســايرهم لأحرز مالا كثــيرا.. ولكنه كان يرى أن المال المكتســب عن طريق الدس للمصريــين.. ومعاونــة الغاصــب والمحتل – مــال حرام – فاختار النفع عن طريق خدمة التاريخ واللغة والأدب.. وتعليم

الشباب تاريخ وحضارة أجدادهم فِي مجلته وكتبه»، وأضاف لطفي جمعة «لقد كانت قلة ماله وابتعاده عن أهل السلطة الغاشمة (الإنجلين) أعظم في نظرى ألف مرة من شهرة أنصار الاحتلال.. الذين زعموا أنهم فلاسفة ومصلحون».

ولعل في ما كتبه لطفي جمعة أبلغ وأقوى رد حول المزاعم التي رددها بعض المتنطعين عن علاقة جرجي زيدان بالإنجليز.. انطلاقا من رحلته معهم في بداية حياته إلى السودان ثم زيارته لإنجلترا.

سابعا: تفرق المثقفون إلى أنواع شتى.. فمنهم من ارتضى الارتماء في أحضان السلطة – أى سلطة – ومنهم من قرر العزلة في (أبراج عاجية).. ومنهم من تحول إلى (موظف للعلاقات العامة).. يروج فقط للنظريات والآداب الأخرى.. وخاصة الغربية.. ومنهم من وقف في قلب (الطابور الخامس).. ليعمل على تنفيذ (أجندات غربية).. ويتبقى نوع أخير هو ذلك (المثقف العضوى).. المهموم والمهتم بقضايا وطنه وأمته.. وبكل المقاييس فإن معايير هذا المثقف العضوى.. تنطبق تماما على جرجي زيدان.. فقد كان أول من دعى إلى إنشاء جامعة مصرية.. وذلك في مقاله (مدرسة كلية مصرية هي حاجتنا الكبرى).. المنشور في الهلال في فبراير سنة ١٩٠٠م.. وقد سبق زيدان قاسم أمين في الدعوة إلى تحرير المرأة وذلك في عام ١٨٩٤م.. عندما طرح سؤاله المهم.. هل للنساء أن يطالبن بكل حقوق الرجل؟

وجاءت إجابته بسـيطة وحاسمة ومليئة بالاستنارة حيث قال (لا يرضينا من الفتاة الشـرقية أن تحبس نفسـها بين جدران غرفتهـا لا تنظر إلى الطريق إلا من خلال قضبان النوافذ).. ثم وضع معادلته العبقرية والتى سـبقت عصره.. والتى أكد فيها أن الفتاة لدينا تحتاج إلى حشـمة الشـرق.. وعلوم الغرب).. وهى المعادلـة التى مازلنا نطالب بها حتى الآن.. وهكذا كان جرجى زيدان فـى طليعة المهتمين والمهمومين بالقضايا المهمة والملحة للمجتمع.

ثامنـا: برغم كل ما قدمه جرجى زيدان للإسـلام.. وللثقافة الإسلامية إلا أن دعـاة الجمود والانغلاق قد أبوا إلا أن يقفوا فى طريقه.. فعند صدور كتابه «تاريخ التمدن الإسـلامى» أثار اهتمام العرب والمستعربين.. ورأوا فيه أول مصدر يعتد به للحضارة الإسلامية.. وسعت الجامعة المصرية للتعاقد مع جرجى زيدان ليقوم بتدريس هـذا الكتاب لطلبتها.. وبعد أن أعـد الرجل المحاضرات التى سـيلقيها على الطلبة.. انفجـرت حركة معارضة كبيرة ضد أن يقوم «مسـيحى» بتدريـس «الحضارة الإسـلامية».. وقاد هذه المعارضة الشـيخ شلبى النعمانى فى الهند.. والشيخ رشيد رضا صاحب مجلة «المنار».. والشـيخ رشـيد رضا أستاذ حسن البنا مؤسـس الإخوان المسـلمين.. الذين مازالوا حتى الآن يعارضون ويهاجمون دعاة الاستنارة.. فما أشبه الليلة بالبارحة.

وقابل جرجى زيدان هذه الهجمة الظلامية بسماحة شديدة.. حيث قام بتسليم رئيس الجامعة المحاضرات التى أعدها لكى يلقيها على الطلبة.. وواصل جهده واجتهاده فى الدفاع عن الثقافة الإسلامية.. وكشف كنوزها ولآلئها.

والغريب أن تلك المحاضرات ظلت ملقاة فى أرشيف الجامعة المصرية.. وفى عام ١٩٦٨م أعلن د. حسين مؤنس ان إميل زيدان أرشده إلى نسخة من هذه المحاضرات وأنه بصدد إعدادها للنشر.. ولكن ذلك لم يحدث.. ولم تخرج هذه المحاضرات للنور إلا من خلال كتاب الهلال وعلى يد د. محمد حرب وذلك عام ١٩٩٤م أى بعد ٨٤ عاما من كتابتها.

وبرغم أن جرجى زيدان قد حقق كل ما يحلم به - وربما أكثر مما يحلم به - أى كاتب أو أديب من شهرة وتأثير إلا أنه فى سنواته الأخيرة كان شغوفا بالحصول على الدكتوراة.. أو كما كان يكتبها «الدكتورية».. وفى رسائله المتبادلة مع لطفى جمعة عندما سافر إلى باريس للحصول على الدكتوراة ما يؤكد ذلك.. ولكنه تراجع بعد أن علم أنها تحتاج إلى تفرغ ودراسة وكان يظن أنها تمنح من بعض الجهات.. وقد دعونا خلال الاحتفال بمئوية رحيل الرائد الكبير جرجى زيدان ٢٠١٤م إلى أن يكون هذا الإحتفال مناسبة لمنح اسمه العديد من درجات الدكتوراة الفخرية - إن كانت لوائح الجامعات تجيز هذا الأمر - إلا أن ذلك لم يحدث للأسف الشديد وبرغم تشوفه إلى الدكتوراه كلقب علمى رفيع

إلا أنه رفض أكثر من مرة «الرتب والألقاب السياسية».. لأنها من وجهة نظره لا تلائم صناعة القلم.

وقد بدأ جرجى زيدان كتابة سيرته الذاتية فى عام ١٩٠٨م تلبية لوعد قطعه على نفسه لابنه إميل.. ولكن مشاغله الكثيرة جعلته يتوقف عند عام ١٨٨٣م.. عام انتقاله إلى القاهرة – وقد ترجمت هذه المذكرات إلى الإنجليزية.. بتقديم وتحقيق البروفسير «توماس فيليب».

وظل جرجى زيدان يكتب ويكتب فهو المؤرخ والباحث والأديب والمفكر.. صاحب الأسلوب الذى يتسم بالسهولة والسلاسة والتشويق.. والوضوح فى حمل الرسالة التنويرية.. تلك الرسالة التى جمعت ما بين عدالة المؤرخ.. وإبداع الأديب واستمر فى الكتابة حتى اليوم الأخير من حياته.. ٢١ يوليو ١٩١٤.. حيث ذهب إلى مكتبه كالعادة.. وأكمل العدد الأخير من السنة الثانية والعشرين من الهلال.. ثم عاد إلى المنزل ليلقى ربه عن ٥٣ عاما فقط.. ولكنها بحساب الإنجاز والتأثير أضعاف أضعاف هذا العمر القصير.

تاسعا: بعد رحيل جرجى زيدان تولى أمر الهلال ابنه إميل.. الذى درس بالجامعة الأمريكية فى بيروت.. ولكنه لم يكن كاتبا أو باحثا أو أديبا مثل أبيه.. فكان عليه أن يبحث عن وسيلة أو وسائل جديدة لاستمرار نجاح المجلة التى رحل كاتبها الأول ونجمها.. فقرر أن يستعين بأقلام كبار الكتاب والمفكرين والأدباء.. وتوالى منذ ذلك الوقت الاستعانة بالكبار عباس محمود العقاد – أحمد أمين – طه حسين – د. ذكى مبارك – توفيق الحكيم..إلخ

وفى عام ١٩٤٧م انتقلت الهلال نقلة نوعية بتولى الدكتور أحمد ذكى رئاسة تحريرها.. فالرجل كان أديبا وعضوا بمجمع اللغة العربية.. وكان أيضـا عالما فجمع ما بين العلـم والأدب على صفحات الهلال.. وجعل منهـا مجلة الجيل الجديد فى الوطن العربى.. ثم توالى رؤسـاء التحرير علـى الهـلال.. وكل منهم يضع بصمته الخاصة مـن خلال اجتهاداته تلك الاجتهادات التى نجحت أحيانا.. وأخفقت أحيانا.. ومن دون أن نأخذ بالترتيب الزمنى.. أو حتى التقييم المهنى نذكر فى عجالة العنوان الرئيس الذى ميز عددا من رؤسـاء تحرير الهلال.. حيث جعلها صالح جودت مجلة أدبية فقط.. وأخفق حين نشر موضوعات السحر والخرافة.. بينما الدكتور على الراعى جعلها مجلة للثقافة الرفيعة.. وجاء على أمين ليجعـل منها مطبوعة تقدم المعرفة العامة للقارئ العادى وخفف الجرعة الثقافيـة ممـا أدى إلى انحراف الهلال عن منهجهـا.. وحاول الدكتور حسـين مؤنس أن «يقلد» مجلة العربى.. بتغيير قطع المجلة.. وفاته أن العربـى خرجـت من رحم الهلال عام ١٩٥٨م وعلـى يد الدكتور أحمد ذكى.. وجاء الأسـتاذ كامل زهيرى ليجعل منها مدرسـة فكرية جديدة تتبنى مناقشـة التيارات الفكرية المختلفة.. كما قدم مجموعة من الأعداد التذكارية عن طه حسين – العقاد – الحكيم – شوقى – سارتر.. إلخ.. واسـتطاع الأسـتاذ رجاء النقـاش أن يجمع ما بين الإيقـاع الصحفى.. والرصانة الثقافية.

عاشـرا: تعرضت الهلال إلى إهمال طويل وبغيض.. فقد نسى أو تناسى القائمون على أمر الثقافة فى مصر.. كما نسـى أو تناسى القائمون

على أمر الهلال أنها المجلة الأقدم والأعرق والأكثر تأثيرا فى كل الوطن العربى.. وأنها أحد أهم ركائز «القوى الناعمة» المصرية.. فلا يوجد أديب أو مثقف أو سياسى مصرى أو عربى.. إلا ونهل من فيوضات الهلال على مدى سنوات طويلة جدا.. ولكن «التجريف» الذى أصاب كل مناحى الحياة فى مصر على مدى الأربعين سنة الماضية.. أصاب الهلال هى الأخرى.. فتراجع «الدور».. وتقزمت «الرسالة» لدرجة أنى عندما شرفت برئاسة تحريرها أغسطس ٢٠١٢م وجدتها فى حالة أقرب إلى «الموت الإكلينيكى».. بعد أن عانت «الانفصال الشبكى» فلم تعد تتواصل مع الإبداع والمبدعين وخاصة أجيال الشباب ولم تعد الحضن الأرحب للإبداعات العربية والمبدعين العرب.. ولم تعد الجسر الذى يربط الثقافة المصرية والعربية بالثقافات العالمية سواء فى الشرق أو الغرب.

وعندما تسلمت رئاسة تحرير الهلال وجدت نفسى أمام ثلاثة تحديات كبيرة..

– تراجع الدولة المصرية.. بل انسحابها تماما من دعم الثقافة والإبداع.
– وجود نظام حكم كافر بالثقافة والإبداع ويرى فى المثقفين أعداء يجب التخلص منهم.
– خفوت أضواء الهلال حتى كادت أن تتلاشى.

ولم أكن أملك «رفاهية» التعامل مع هذه التحديات بالتوالى.. فلابد من التعامل معها فى وقت واحد.. وأزعم أننا قد حققنا نجاحات كبيرة

علـــى جبهتين وهما تطوير المجلة.. ومواجهـــة النظام المعادى للثقافة.. حيـــث حمل العدد الأول في ظل رئاســـتى للتحرير «ســـبتمبر ٢٠١٢م» ملامـــح النجاح على الجبهتين.. حيث وضعنا على غلاف المجلة صورة الزعيـــم جمال عبدالناصر وعنوانا كبيرا «باقة شـــوق إلى الزعيم».. وبعده توالت أعداد المواجهة «انتصار أكتوبر – ســـيناء من البطولة إلى الإرهاب – محمد حسنين هيكل – الثورة والإبداع – القوى الناعمة – التعليم أمة في خطر – النوبة.. أزمة ثقافة وثقافة أزمة – الســـخرية والسياســـة».. وخرج الشعب المصرى في ٣٠ يونيه ٢٠١٣م ليقصى هذا النظام المعادى للثقافـــة.. وفى العدد الأول أيضا ســـبتمبر ٢٠١٢م وضعنا تبويبا جديدا يجعل المجلة في أربعة أقســـام كبيرة قســـم عن الثقافة المصرية.. وقسم يحمل عنوان «العروبة وطن» فى مواجهة شعار الإخوان «الإسلام وطن».. وهو قســـم ينفتح على الثقافة العربية وقســـم بعنوان «جسور» ينفتح على الثقافة العالمية.. وأخيرا قسم بعنوان «عيون على صهيون» يحاول كشف كيف يفكر أعداؤنا وماذا يكتبون.

وعلـــى مدى ما يقرب مـــن العامين حاولنا أن نأخذ من كل التجارب التـــى مرت على الهـــلال أفضل ما فيها مع وضع بصمتنا الخاصة.. وقد لاقـــت عملية التطوير ترحيب الغالبيـــة العظمى من المبدعين والمثقفين.. ولكـــن ظل التحدى الثالث عقبة وعائقا يصعب اختراقه. حيث ما زالت الدولـــة المصرية على موقفها من عدم دعـــم الثقافة الحقيقية ففى الوقت الذى نجـــد «بنات وحفيدات» الهلال مثل العربى والدوحة ودبى.. إلخ تحظـــى بدعم كامل وقوى من دولها.. فـــإن الهلال لا تلقى أى دعم من

الدولة.. ومن المضحـــكات المبكيات أن وزارة الثقافة المصرية تصدر أكثر مـــن ثلاثين مجلة وجريدة مما يجعلها «وزارة الصحافة» لا الثقافة. وكل هذه الإصدارات ليســـت فـــي قيمة أو قامة الهلال.. ولـــو قامت الوزارة بإلغاء نصف هذه الإصدارات لتدعم بتكلفتها مجلة الهلال لأصبح للمجلة الأعرق شـــأن آخر.. وقـــد صرخنا ونحن نحتفي بمئوية الرائد المؤســـس جرجـــي زيدان لكل من يهمه أمر الهلال بشـــكل خـــاص.. وأمر الثقافة بشـــكل عام.. أن يعمل وبشـــكل عاجل على أن تعود الهلال إلى ســـابق عهدها المجلة الثقافية الأكثر تأثيرا.. وذلك لأن غياب الهلال – لا قدر الله – ســـيمثل جريمـــة لا يمكن لنـــا أو لغيرنا أن يتحمـــل تبعاتها أمام التاريخ.. وبرغم شـــهادة الغالبيـــة العظمى من المثقفين والمفكرين والأدباء بأن الهلال خلال العامين اللذين شـــرفت خلالهما برئاســـة تحريرها قد عـــادت تمثل واحدا من أهم روافد القوى الناعمة المصرية.. خاصة وأنها قد تحولت إلى مجلة للثقافة الوطنية.. برغم كل هذا إلا أن حزب أعداء النجـــاح من المتطفين قد صعب عليهم عـــودة هذه المنارة فعملوا على وأد التجربة وأعادوا الهلال مـــرة أخرى إلى حالة (الموت الإكلينيكي).. في تصرف يستحق المساءلة والعقاب.

□□□